الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي

حسن الصفار

ⓗ حسن موسى الصفار ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصفار ، حسن موسى

الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي. / حسن موسى الصفار. .

القطيف ، ١٤٢٦هـ

30 ص ؛ ٠٠سم

ردمك: ٧- ٠١٥ - ٤٩ - ٩٩٦٠

١- الاجتهاد (أصول الفقه) أ. العنوان

ديوي ٣٥١,١٥ ١٤٢٦/٣٤٥٥

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٣٤٥٥

ردمك: ٧- ٠١٥ - ٤٩ - ٩٩٦٠

- الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي
- تأليف: سماحة الشيخ حسن بن موسى الصفار
- الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
-
- هذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقيت يوم الجمعة ١٠جمادى الأولى ١٤٢٦هـ الموافق ١٧ يونيو ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

تقديم

المجتمع في كل مرحلة من مسيرته يحتاج إلى ثقافة واعية هادية، تبصّره بواقعه، وتفتح أمامه آفاق الطموح والتطوير، وتعينه على مواجهة التحديات والصعاب.

ولكي تؤدي الثقافة دورها في بناء المجتمع، وتفعيل طاقاته، وشحذ هممه نحو التقدم، لا بد أن تتمتع بالمواصفات التالية:

ـ أن تكون أصيلة نابعة من قيم المجتمع الدينية الصحيحة.

ـ وأن تكون معاصرة تواكب تغييرات الحياة، وتطورات الفكر.

ـ وأن تنبثق عنها برامج عملية تستوعب حاجات المجتمع ومتطلباته.

ـ وأن تمتلك لغة التخاطب مع الناس في شرائحهم ومستوياهم المختلفة واهتماماهم المتعددة، دون الإغراق في التنظير التجريدي والمصطلحات التخصصية المتداول في الخطاب النخبوي، لأن التخاطب مع الجمهور يحتاج إلى أكبر قدر من الوضوح، ومعالجة قضايا الواقع المعيش.

ونخبة المجتمع الواعية من علماء وخطباء ومفكرين وأدباء، هم الجهة المسؤولة والمعنية بإنتاج وتوفير هذه الثقافة المطلوبة.

من هذا المنطلق، وعلى هذا الصعيد يمارس سماحة الشيخ حسن الصفار حفظه الله عطاءه الثقافي الواعي عبر الكتابة والخطابة والحضور الاجتماعي المكثّف.

وهذه السلسلة من الكتيبات هي تحرير لبعض المحاضرات التي ألقاها في مناسبات مختلفة، قام القسم الثقافي في مكتب سماحته بإعدادها للنشر، آملين أن تساهم في نشر الوعي، وتدوير الأفكار البناءة، والتنوير الثقافي للمجتمع.

راجين لسماحته من الباري عز وجل مزيداً من العطاء ودوام التوفيق والله هو المعطي والموفق.

الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي

يرى الفقهاء أن الاجتهاد واجبٌ علـى الأمـة وجوبـاً كفائيـاً، فلابـد أن يكون في كل عصر وجيل مـن أبنـاء الأمـة مـن يبلغـون رتبـة الاجتـهاد، ويقومون باستنباط الأحكام الشرعية.

بعض الفقهاء ربط هذا الحكم بمسألة أخرى، وهي مسألة جـواز تقليـد المجتهد الميت ابتداءً، وهي مسألة خلافية بين الفقهاء، حيث يتفـق الفقهـاء على صحة تقليد الميت استمراراً، على خـلاف في التفاصـيل، أمـا تقليـد الميت ابتداءً، فأكثر المعاصرين يرى عدم صحته.

إن هناك رأياً يقول: إذا قلنا بأن تقليد الميت ابتداءً جائز، يسقط وجـوب الاجتهاد على الأمة، أما إذا قلنا بعدم الجواز عندها يكون واجباً على الأمـة أن تُنجب مجتهدين أحياء.

والصحيح: أن الحكم لا ينبغي أن يتوقف على ذلك، حتى لو قلنـا بأنـه يجوز تقليد الميت ابتداءً فإن ذلك لا يعني الاسـتغناء عـن وجـود المجتهـدين والفقهاء الأحياء، لماذا؟ لأن المجتهد الميت قـد أعطـى الـرأي الفقهـي فيمـا عاصره من المسائل، فإذا كانت هناك مسـألة جديـدة فمـا العمـل عنـدها؟ فلابد أن يكون هناك مجتهدون أحياء.

ولكن هل مجرد وجود المجتهد يكفـي، أو أن المطلـوب أن يُعمـل ملكـة الاجتهاد؟ بالتأكيد المطلوب هو الأمر الثاني، أما وجود المجتهد بدون أن يقوم بدور الاجتهاد والإفتاء، فمثله كمثل الطبيب الذي لا يُمارس دوره في علاج المرضى.

كما أن القيام بدور الاجتهاد لا يقتصر على المسائل الجديدة، وإنما على المجتهد أن يُبدي رأيه ويجتهد في المسائل التي أعطى الفقهاء السابقون فيها رأياً، وهذا أمرٌ بديهي.

والسؤال: لماذا هذا الأمر، مع العلم أن الاجتهاد في أي مسألة من المسائل يستغرق وقتاً وجهداً غير قليل، كما أن العلماء السابقين أشبعوا المسائل التي أفتوا بها بحثاً ونحن نثق بمكانتهم العلمية وإخلاصهم؟

والجواب: لا يصح للفقيه أن يعتمد على آراء الفقهاء السابقين، وإلا أصبح مقلّداً. فمن حيث المسائل المستجدة ليس هناك جدال حول ضرورة أن يكون للمجتهد رأي فيها، وأما المسائل التي أعطى الفقهاء السابقون فيها رأياً فإنه يتحتم على الفقيه المجتهد التأكد من تلك الآراء، فلعله يكون هناك خطأ أو اشتباه، أو قد تتضح للفقيه رؤية لم تتضح للفقهاء السابقين، أو قد يكتشف نقطة ضعفٍ في الأدلة لم يقف عندها الفقهاء السابقون، لذلك يجب أن يجتهد الفقيه في تلك المسائل، ولا يعتمد على اجتهادات الفقهاء السابقين. وهذه ميزة مهمّة لحيوية الفكر والفقه الإسلامي، ليكون لديه قابلية التجدد، ولا تكون هناك حالة ركود وجمود.

إضافةً إلى ذلك، فإن رأي الفقيه يتأثر بمستواه العلمي، وبالبيئة التي عاش فيها، لذلك لزم على الفقيه الذي يليه أن يُعيد النظر في المسائل، فلعله يتضح له رأي آخر يخالف الرأي الذي توصل إليه السابقون.

في بعض الأحيان تحصل حالة ركود في الأمة، فلا تكون هناك جرأة لطرح رأي جديدٍ، ولا يكون هناك تقبلٌ لرأيٍ يُخالف آراء السابقين، أو يُخالف الرأي السائد.

وعادة ما تكون هناك مشكلة حينما تُطرح في الساحة الفكرية أو الفقهية آراء جديدة غير تلك الآراء المتداولة السائدة. وفي الواقع إذا لم تكن هناك فرصة لطرح رأيٍ جديد، فإن مبرر الاجتهاد ينتفي. فلا بد أن يكون المجال مفتوحاً والفرصة سانحةً لكي يُقدم الفقيه النتائج التي أدى إليها رأيه واجتهاده.

وقد واجه البحث العلمي عند الشيعة هذه المشكلة في وقت مبكر، وكانت أول مشكلة واجهها الفقه الشيعي بين الجمود على آراء الفقهاء السابقين، وبين التجاوز لها ونقدها علمياً، يؤرخ لها بالقرن السادس الهجري. فكيف حصلت هذه المشكلة؟ ومن هم أبطالها؟

الشيخ الطوسي وزعامته العلمية

كان هناك فقيهٌ بارز في القرن الخامس الهجري، هو الشيخ محمد بن الحسن الطوسي ﵀ (٣٨٥ـ٤٦٠هـ)، ويُطلق عليه: (شيخ الطائفة) وهو الذي أسس الحوزة العلمية في النجف الأشرف، بعد أن غادر بغداد بسبب فتنة طائفية أورى نارها السلجوقيون سنة ٤٤٨هـ.

كان الشيخ الطوسي عالماً عظيماً، ومحققاً مبدعاً، وكان ثريَّ المعرفة والعلم. وقد منحه الخليفة العباسي، القائم بأمر الله عبدالله بن القادر بالله أحمد، كرسيَّ الكلام والإفادة، وقد كان لهذا الكرسي يومذاك عظمة وقدر فوق الوصف، إذ لم يسمحوا به إلا لمن برز في علومه، وتفوق على أقرانه، ولم يكن في بغداد يومذاك من يفوقه قدراً، أو يفضل عليه علماً، فكان هو المتعين لذلك الشرف.[١]

وكان يحضر تحت منبر تدريسه مئات العلماء شيعةً وسنة، فمن الشيعة يحضر تدريسه ثلاث مئة مجتهد، ومن السنة يحضر تدريسه المئات من طلبة العلوم الدينية.

---

(١)الأمين: محسن، أعيان الشيعة، ج٩ ص١٥٩، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٨٦م.

وقد أثرى الشيخ الطوسي مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، ففي مجال الحديث يعتمد المذهب الإمامي على أربعة كتب: الكافي (للشيخ الكليني ٣٢٨هـ)، من لا يحضره الفقيه (لابن بابويه القمي ٣٨١هـ)، وكتابا تهذيب الأحكام والاستبصار (للشيخ الطوسي)، فنصف مصادر الحديث عند الإمامية كتبها الشيخ الطوسي.

وأول تفسير مهم للقرآن الكريم للشيعة كتبه الشيخ الطوسي وهو: التبيان في تفسير القرآن.

وفي الفقه، فإن أبرز الكتب الفقهية كتبها الشيخ الطوسي: ومنها المبسوط في الفقه، الخلاف في الفقه المقارن، والنهاية في مجرد الفقه والفتاوى.

وفي الأصول كتب الشيخ الطوسي: العدة في أصول الفقه والأصول الاعتقادية.

وفي علم الرجال يبرز كتابه المعروف (رجال الشيخ الطوسي) وهو أحد الأصول الرجالية المعوّل عليها عند العلماء.

فهو عالم موسوعي، له ثراء علمي ومعرفي، ولذلك فإن شخصيته هيمنت على الطلاب والعلماء، فلم تكن هناك جرأة لطرح رأي في مقابل رأي الشيخ الطوسي، إما لأنه ليس هناك قدرة لطرح رأيٍ فوق رأيه، أو لهيبةٍ في نفوس العلماء، أو لحسن ظنٍّ برأي الشيخ الطوسي.

واستمرت هذه الحالة إلى ما بعد وفاة الشيخ الطوسي، إذ لم يتجرأ أحدٌ من الفقهاء أن يُعطي رأياً مخالفاً لرأي الشيخ الطوسي، وبقي هذا الجمود الفقهي عند الفقهاء مدة تقرب من قرنٍ ونصف من الزمن.

حتى جاء العالم الكبير محمد بن إدريس الحلي (٥٤٣ـ٥٩٨هـ)، يقول

الشيخ أغا برزك الطهراني: «مضت على علماء الشيعة سنون متطاولة، وأجيال متعاقبة، ولم يكن من الهيّن على أحد منهم أن يعدو نظريات شيخ الطائفة في الفتاوى، وكانوا يعدون أحاديثه أصلاً مسلماً ويكتفون بها، ويعدون التأليف في قبالها وإصدار الفتوى مع وجودها تجاسراً على الشيخ وإهانة له، واستمرت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ ابن إدريس، فكان أعلى الله مقامه الشريف يسميهم بالمقلدة، وهو أول من خالف بعض آراء الشيخ وفتاواه، وفتح باب الرد على نظرياته، مع ذلك فقد بقوا على تلك الحال حتى أن المحقق وابن أخته العلامة الحلي ومن عاصرهما بقوا لا يعدون رأي شيخ الطائفة».[1]

(١)الطوسي: محمد بن الحسن، الخلاف، ج١ ص١٠، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤٠٧هـ.

ابن إدريس ومعركة التجديد

كان الشيخ ابن إدريس شاباً نابغة حادّ الذكاء، كما كان محققاً ومجدداً، رأى أن الجو العام غير طبيعي تجاه آراء الشيخ الطوسي التي لا يجرؤ أحد من الفقهاء أن يتجاوزها، كما أن أي رأي يُخالف رأي الشيخ الطوسي لا يحظى بالقبول، بل يتعرض للسخرية والاستهزاء. فرأى أن من واجبه الشرعي أن يثور على هذه الحالة، وكتب كتاباً اسمه: (السرائر)، وتعمّد المناقشة لأغلب آراء الشيخ الطوسي وطرح الآراء التي يُخالفه فيها بكل جرأة، مقدماً في ذلك الأدلة التي تؤيد آراءه. كما شنّ هجوماً على الفقهاء المعاصرين له وأطلق عليهم: المقلّدة، وكان ينتقد الفكر السائد الذي يدعو للجمود أمام آراء الشيخ الطوسي.

ولكن الفقهاء المعاصرين له لم يقبلوا منه هذا التوجه المخالف للشيخ الطوسي، وثاروا عليه، وحصل بذلك أول صراعٍ بين الجمود والتجديد في تاريخ الفقه الشيعي.

وكتاب (السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى) هو من أشهر كتب الشيخ ابن إدريس الحلي وأهمها، ويعدّ كتاب (السرائر) أحد مصادر الفقه الشيعي، بل لا يوجد مؤلف بأهميته ما بين مؤلفات الشيخ الطوسي في القرن الخامس الهجري وتصانيف المحقق الحلي في القرن السابع، وقليلون هم الفقهاء الذين

أتوا بعد ابن إدريس ولم يستندوا إلى السرائر أو يرجعوا إليه أو يأتوا على ذكره.[١]

صحيح أن الشيخ ابن إدريس عانى من معارضة المعاصرين له ومحاربتهم إياه، لكنه قدم خدمة عظيمة لحركة الاجتهاد وحرية البحث العلمي، وكل من يدرس تاريخ الفقه الشيعي يترحم على الشيخ محمد بن إدريس الحلي، الذي كسر حاجز الركود والجمود في الفقه الشيعي، ولو لا حركته المباركة للتجديد لأصبح الاجتهاد عنواناً بدون معنى.

قال صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني: «كان هذا الشيخ (ابن إدريس الحلي) فقيهاً أصولياً بحتاً ومجتهداً صرفاً، وهو أول من فتح باب الطعن على الشيخ (الطوسي) وإلا فكل من كان في عصر الشيخ أو من بعده إنما كان يحذو حذوه غالباً إلى أن انتهت النوبة إليه».[٢]

قال الشيخ عباس القمي: «شيخ فقيه، ومحقق نبيه... وقد أذعن بفضله العلماء المتأخرون وأقروا بعلمه وفقهه وتحقيقه..»[٣]

ووصفه الشهيد السيد محمد باقر الصدر بالفقيه المجدّد.[٤]

إنه عانى ما عانى في حياته بسبب جرأته وتمسكه بحرية الفكر وحق

---

(١)بناري: علي همت، ابن إدريس الحلي، ص١٣٣، ترجمة حيدر حب الله، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، الغدير للطباعة والنشر، بيروت.

(٢)المصدر السابق، ص٣٤.

(٣)المصدر السابق.

(٤)المصدر السابق، ص٣٦.

التعبير عن الرأي، ولكنه فتح الطريق أمام الفقهاء ليطرحوا آراءهم بكل جرأةٍ وشجاعة. بالطبع، فإن الذي يسير وفق الرأي السائد يسلم من أي اتهام، ولكن المخالف للسائد هو الذي يجب أن يتحلى بالصبر والثبات تجاه ما يطرح من آراء يؤمن بها ويرى صوابيتها.

والمسألة لا تعني تمجيد المخالفة لذات المخالفة، وإنما الأمر أن هذا الرأي الجديد له أدلته، والناطق به أهلٌ لأن يُبدي رأياً في المجال الذي يتحدث فيه، وهذا هو المطلوب في كل عصر وزمان.

بالطبع، فإن الإشادة بدور الشيخ ابن إدريس الحلي لا تعني القول بصحة وصوابية كل آرائه، فهو كغيره من الفقهاء قد يصيب وقد يخطئ، ولا يمكن القول بأرجحية رأيه في كل المسائل التي خالف فيها الشيخ الطوسي، ولكن التمجيد والتقدير إنما هو لدوره النقدي العلمي، ولمنهجيته في ممارسة الاجتهاد والتجديد، خارج أسر رأي السلف، وسقف فتاوى المشهور، على حساب الدليل والبرهان.

إن بعض الآراء التي قررها وأفتى بها الشيخ ابن إدريس الحلي، تتصف بالتشدد، وقد لا تصمد أمام البحث والنقد العلمي، وقد ناقشها العلماء بعده، وردوا عليه، وأبانوا نقاط الضعف في أدلته.

ومنها مثلاً قوله بكفر ولد الزنا، وترتيب أحكام الكفر في التعامل معه، وقوله بحرمة صلاة الجمعة للفقهاء إلا للإمام العادل أو من نصبه، وقوله بعدم اشتراط الفقر في إعطاء الخمس لأيتام بني هاشم ـ بل يمكن تحويل الخمس إليهم حتى مع غناهم وعدم حاجتهم ـ.

الاجتهاد دعوة إلى التجديد

تحتاج الأمة إلى التجديد في الاجتهاد في الفكر والفقه، في كل عصرٍ وزمان، وخاصةً أمام المنعطفات، فإذا كانت هناك منعطفات كبيرة في حياة البشرية وتحديات تواجهها الأمة فإن الحاجة للتجديد تكون أكثر إلحاحاً، لماذا؟ لأن الفقهاء السابقين أعطوا آراءهم من خلال وضع كانوا يعيشونه، وبيئة كانوا يتفاعلون معها، ولكن مع تغير الأوضاع والتطورات في العالم، يجب الاجتهاد بجرأة وانفتاح، فلعلّ المتغيرات والتطورات تفتح المجال للتفكير بشكلٍ آخر.

ولا شك أن كثيراً من موضوعات الأحكام الشرعية قد استجدت أو تغيّرت عما كانت عليه في زمن الفقهاء السابقين، مما يعني تغيراً في الحكم تبعاً لتغيرّ الموضوع. كما أن فرص الفقيه في استقصاء النصوص الشرعية، والاطلاع على الآراء الفقهية وأدلتها، أصبحت أكبر وأفضل، فإن الفقيه في الزمن الماضي كان يصرف وقتاً وجهداً كبيراً لجمع النصوص والآراء من كتب مخطوطة، أو محدودة التداول والانتشار، بينما يستطيع اليوم الإطلاع على أكبر عدد من النصوص والآراء عبر جهاز الحاسوب، بسهولة لا تكاد تذكر.

ولا يمكن تجاهل تأثير التراكم العلمي والمعرفي، فأمام فقيه العصر نتاج علمي معرفي هائل في مختلف مجالات العلوم، بما فيها العلوم الشرعية،

حيث أثراها علماء العصور الماضية باجتهاداتهم وآرائهم، فرصيد المعرفة والعلم والخبرة والتجربة المتوفر اليوم أعظم وأضخم مما كان متوفراً في الأزمنة السابقة.

صحيح أن الفقهاء في العصور المتقدمة يمتلكون ميزة القرب من عصر النص، لكنهم يفتقدون ما أشرنا إليه من امتيازات معاصرة.

عوائق التجديد

تنتصب أمام الفقيه عوائق مختلفة تعترض طريقه لتجديد الرأي والنظر فيما هو موروث مشهور، أو سائد متداول من الآراء الفكرية والفقهية.

وأبرز تلك العوائق: سيطرة الأجواء المحافظة التي ترفض الرأي الآخر، ووجهة النظر المخالفة، في الحوزات العلمية والأوساط الدينية غالباً.

حيث ينظر البعض إلى الرأي الجديد وكأنه بدعة أو خروج عن الإطار الشرعي، أو تهديد للعقيدة والأصالة وثوابت الدين.

وقد تدخل الأغراض الشخصية والمصلحية على الخط، فيتداخل الاختلاف في الرأي مع التضارب في المصلحة أو النزاع على المكانة والموقعية.

وهنا يُشهر سلاح الاتهام والتشكيك تجاه صاحب الرأي المخالف الجديد، وتستثار عواطف ومشاعر الجمهور ضده.

هذه المعاناة عادة ما يواجهها الفقهاء المجددون، وقد أخذ الشيخ ابن إدريس حظه من هذه المعاناة.

فقد اتهموه بترك أخبار أهل البيت والإعراض عنها، كما ذكر ابن داود الحلي في رجاله، حيث قال: «محمد بن إدريس العجلي الحلي، كان شيخ

الفقهاء بالحلة، متقناً في العلوم، كثير التصانيف، لكنه أعرض عن أخبار أهل البيت».[١]

فهل يعقل أن يُعرِضَ فقيه شيعي عن أخبار أهل البيت عليهم السلام؟ ثم إن للشيخ ابن إدريس كتاباً جمع فيه كثيراً من الأحاديث والأخبار عن أهل البيت عليهم السلام بعنوان (مستطرفات السرائر)، كما أن كتابه (السرائر) مملوء بأخبار أهل البيت، وفي كثير من الموارد حرص على نقل متون الأخبار بعينها.

ولكن تحوّل الخلاف من نهجه العلمي إلى الخصام الشخصي ينتج مثل هذه الاتهامات.

كما أتهم ابن إدريس وقُدح فيه باعتباره قد أهان الشيخ الطوسي وطعن فيه، بل قال بعضهم: إن ابن إدريس توفي في سن مبكر من عمره جزاءً له على توهينه وإساءته الأدب مع الشيخ الطوسي!! حسب نقل الشيخ محمد المازندراني في منتهى المقال.[٢]

وقد ناقش هذه التهمة باحث معاصر، واستقصى كتاب (السرائر) للشيخ ابن إدريس ليرى كيفية تعامله مع شخصية الشيخ الطوسي، فاكتشف أنه مع مناقشته الجادة لآراء الشيخ الطوسي، لكنه يذكره بكل احترام وتقدير وتجليل، ورصد هذا الباحث أربعة عشر موضعاً ذُكر فيها الشيخ الطوسي في كتاب ابن إدريس، ليس في شيء منها أي إساءة أو

---

(١) المصدر السابق، ص٤٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص٤٤٧.

توهين، حيث يعبر عنه بمثل قوله: «شيخنا أبو جعفر»، «شيخنا السعيد أبو جعفر»، «الشيخ الفقيه»، «رضوان الله عليه»، «رحمه الله»، «رضي الله عنه»، «الشيخ السعيد الصدوق أبو جعفر رضي الله عنه وتغمده الله تعالى برحمته».

بل إن الشيخ ابن إدريس حينما وجد قولاً نقله الشيخ الطوسي عن السيد المرتضى، مع عدم وجود ذلك القول في أي من كتب السيد المرتضى أو مصنفاته، بل المنقول خلافه، فإن ابن إدريس يبرر للشيخ الطوسي بقوله: «ولعل شيخنا أبا جعفر سمعه من المرتضى في الدرس، وعرفه منه مشافهة، دون المسطور، وهذا هو العذر البيّن، فإن الشيخ ما يحكي بحمد الله تعالى إلا الحق اليقين، فإنه أجل قدراً، وأكثر ديانة من أن يحكي عنه ما لم يسمعه ويحققه منه».

ويلاحظ في بعض الحالات التي يذكر فيها ابن إدريس كلاً من الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والسيد المرتضى أن تعابيره في حق الشيخ الطوسي تكون أكثر احتراماً وتقديرا.[١]

مع كل ذلك، فإن تهمة الإهانة والطعن على الشيخ الطوسي قد ألصقت بالشيخ ابن إدريس، بسبب جرأته على طرح الرأي الآخر.

(١) المصدر السابق، ص٤٤٨ ـ ٤٥٠.

معاناة متجددة

ما عاناه الشيخ ابن إدريس الحلي من بعض الوسط العلمي الديني بسبب جرأته في الاجتهاد، وممارسة حقه في التعبير عن الرأي، بل القيام بواجبه الشرعي في تبيين ما يدين الله به من رأي وصل إليه اجتهاده، هو حالة متكررة ومعاناة متجددة يواجهها العلماء الأحرار في تفكيرهم ومواقفهم في مختلف العصور.

وقد تحدث الشهيد الشيخ مرتضى المطهري في عدد من خطاباته وكتاباته عن هذه المشكلة التي تعيق تطور الفكر والفقه الإسلامي، ونقل في حديث له بعنوان (المشكلة الأساس في جماعة علماء الدين) عن الإمام السيد حسين البروجردي شكواه من الضغوط التي تقيده في الوسط الديني من إعلان بعض آرائه وفتاواه، قائلاً: «إن التقية من أصحابنا أهم وأعلى».

وأشار الشيخ المطهري إلى أن المسألة لا تقتصر على رفض طرح الرأي الجديد، وإنما حتى التجديد في الوسائل والأساليب المتداولة في الحوزة العلمية يواجه عوائق وممانعة، فالشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية في قم اضطر للتراجع عن فكرة تخصيص دروس لتعلم اللغة الإنكليزية في الحوزة آنذاك، بسبب ضغط بعض الجهات التي أثارت زوابع وتشكيكات بعدم جواز صرف الحقوق الشرعية على تعلم لغة الكفار!!

بالطبع، تجاوزت الحوزة العلمية في قم أخيراً هذه المشكلة وأصبح تدريس اللغات الأجنبية قائماً.(١)

وحين أعلن الإمام السيد محسن الحكيم تغيير رأيه وأفتى بطهارة أهل الكتاب (اليهود والنصارى ومن ألحق بهم) ثارت ضده زوبعة من بعض الأطراف الدينية. ويشير الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (فقه الإمام الصادق) إلى حساسية الأجواء الدينية من طرح مثل هذا الرأي الفقهي في مسألة جانبية فيقول:

«عاصرت ثلاثة مراجع كبار من أهل الفتيا والتقليد، الأول كان في النجف الأشرف، وهو الشيخ محمد رضا آل يس، والثاني في قم، وهو السيد صدر الدين الصدر، والثالث في لبنان، وهو السيد محسن الأمين، وقد أفتوا جميعاً بالطهارة ـ طهارة أهل الكتاب ـ، وأسروا بذلك إلى من يثقون به، ولم يعلنوا خوفاً من المهوّشين، على أن (الشيخ) يس كان أجرأ الجميع. وأنا على يقين بأن كثيراً من فقهاء اليوم والأمس يقولون بالطهارة، ولكنهم يخشون أهل الجهل، والله أحق أن يخشوه».(٢)

هذا كان قبل حوالي نصف قرن أما الآن فالرأي السائد بين الفقهاء هو القول بطهارة أهل الكتاب، بل هناك رأي بدأ يتبلور عند بعض الفقهاء بطهارة جميع الكفار فالإنسان لا يكون نجساً بسبب دينه وعقيدته.

---

(١) المطهري: مرتضى، محاضرات في الدين والاجتماع، ص٥٥٩، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، الدار الإسلامية، بيروت.

(٢) مغنية: محمد جواد، فقه الإمام الصادق، ص٣٣، الطبعة السادسة ١٩٩٢م، دار التيار الجديد، بيروت.

ومع قوة شخصية وموقعية الإمام الخميني ﵀، فإنه لما أفتى ببعض المسائل المخالفة للرأي الفقهي السائد، كفتواه بجواز الشطرنج إذا لم يكن فيه قمار مالي، ثارت ضده بعض الزوابع، وكتب له بعض تلامذته ناصحين بأن لا يصدر مثل هذه الآراء المخالفة للمشهور، لأن البعض يستغلها لتشويه سمعته والتشكيك في نزاهته!

وأشار الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي إلى أن كثيراً من العلماء يحملون رأيهم في صدورهم، ولا يبوحون به خشية الوقوع في الخلاف والاختلاف. وضرب مثلاً على ذلك بقول الشيخ محمد أبو زهرة في أحد المؤتمرات: أنه عنده رأي كتمه عشرين عاماً ويريد أن يبوح به الآن. وقال الشيخ القرضاوي: إنني كتمت بعض الفتاوى لسنين طويلة خشية أن يهاجمني المهاجمون ثم بدأت أفصح عن هذه الفتاوى وأنشرها.[1]

(١) الشرق الأوسط، جريدة يومية تصدر من لندن، بتاريخ ٢٠٠١/١/٣٠م.

ممارسة الحرية والدفاع عنها

إن الاستسلام لهذه المشكلة والخضوع لها، يكلف الإسلام والأمة ثمناً باهظاً، فتشريع الاجتهاد ليس أمراً عبثياً، وليس مسألة ترفيّة، وإنما لأن طبيعة الحياة والإنسان تقتضي ذلك، والاجتهاد يظهر حيوية الفكر والفقه الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان.

لكن الجمود والركود والوقوف عند آراء السلف وفتاوى المشهور على حساب الدليل والبرهان، يفرغ الاجتهاد من محتواه، ويجعله عنواناً شكلياً، حينما يجد الفقيه والمفكر نفسه مقيداً بالرأي السائد والمتداول.

والأمة الإسلامية تواجه اليوم تحديات كبيرة على مختلف الصُّعد الفكرية والسياسية والاجتماعية، فلا بد أن يجتهد علماؤها ومفكروها لتلمس طريق الخلاص، والارتقاء إلى مستوى التحدي، وذلك يستدعي استنهاض الفكر واستثارة الرأي، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه للأكفاء والمؤهلين، دون قيود سياسية أو اجتماعية.

إن حرية الفكر وحق التعبير عن الرأي مطلب إنساني، تتطلع إليه كل الشعوب، فهل يصح أن يُحرم منه العلماء والمفكرون داخل أوساطهم؟

وإذا كان هناك من يتحدث عن بعض سلبيات حرية الرأي والفكر، فإن مواجهة تلك السلبيات لا يكون بالقمع والحصار، وإنما بالمنازلة العلمية، والطروحات المنهجية التي ترشّد المسار، فسلبيات الجمود والإرهاب الفكري أكثر ضرراً وأشد خطرا.

وأود أن أركز في نهاية حديثي على النقاط التالية:

١. إن ممارسة الاجتهاد وإعطاء الرأي والفتوى في مسائل الفقه هو حق للمجتهد الفقيه دون من لا يمتلك هذه الكفاءة. كما أن للاجتهاد ضوابطه المقررة.

٢. إن حرية البحث والنظر ومجال التعبير عن الرأي هي من الأجواء الطبيعية للاجتهاد وتنمية القدرات والطاقات، وبلورة الآراء وإنضاج الأفكار وتكامل النظريات.

٣. إن الساحة العلمية الدينية بحاجة ماسة إلى وجود الفقهاء المتوفرين على الجرأة والشجاعة لمواجهة التحديات الخطيرة.

٤. إدارة الصراع الفكري والاختلاف العلمي يجب أن تتم وفق آداب الإسلام وأخلاقيات العلم والمعرفة، ولا يجوز استخدام الأساليب الخاطئة في إسقاط الأشخاص والتشكيك في النيات، وتحشيد عواطف الجمهور.

٥. آن أن تنبثق داخل الأجواء العلمية والدينية جهات تتبنى الدفاع عن حرية الفكر وحق التعبير عن الرأي، فهناك شريحة واسعة في الوسط الديني تؤمن بذلك، لكنها لم تأخذ مبادرة لخدمة هذا التوجه، مما ترك الساحة فارغة لضغوط الأطراف المحافظة والممانعة للتغيير والتطوير. إن مستوى الوعي عند الجمهور قد تقدم، والإحساس بضرورة التجديد قد اتسعت رقعته، لكن العناصر الواعية في الوسط العلمي والديني بحاجة لتكثيف جهودها من أجل الدفاع عن حرية الفكر وحق التعبير عن الرأي.

نسأل الله تعالى أن يمنحنا البصيرة في ديننا والالتزام بثوابته وأحكامه إنه ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

تعريف المؤلف

- سماحة الشيخ حسن بن موسى بن الشيخ رضي الصفار.
- ولد سنة ١٣٧٧هـ في القطيف من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، بعد دراسة القرآن الكريم التحق بمدرسة زين العابدين الابتدائية ثم مدرسة الأمين المتوسطة بالقطيف.
- بدأ دراسة العلوم الدينية على يد العلماء في القطيف، كما بدأ ممارسة الخطابة الدينية سنة ١٣٨٨هـ الموافق ١٩٦٨م.
- هاجر إلى النجف الأشرف (العراق) لطلب العلم سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م ثم انتقل إلى حوزة قم (إيران).
- التحق بمدرسة الرسول الأعظم بالكويت.
- من رواد الصحوة الإسلامية بالمنطقة.
- رعى تأسيس عدد من المراكز والمؤسسات الدينية والثقافية في أنحاء العالم (السعودية ـ سلطنة عمان ـ سوريا ـ إيران ـ الولايات المتحدة الأمريكية).
- له مشاركات إعلامية عبر القنوات الفضائية والصحافة.
- شارك في الكثير من المؤتمرات الإسلامية من بينها مؤتمر الشباب المسلم في أمريكا، ومؤتمر الوحدة الإسلامية في إيران، واللقاء الوطني للحوار الفكري في المملكة العربية السعودية، ومؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية في مملكة البحرين.
- صدر له أكثر من سبعين كتاباً ترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية.
- يعد سماحة الشيخ من ألمع الوجوه الثقافية التي تؤمن بالحوار والانفتاح على الآخر وحرية المعتقد والتعددية والوفاء والارتقاء بمفهوم الوطن والمواطنة وكذلك في عقلنة الخطاب الإسلامي وصولاً إلى لم الشمل وجمع الكلمة.

للتواصل مع المؤلف:
المملكة العربية السعودية ص. ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١
هاتف: ٨٥٥٥٢١٠ ٣ ٩٦٦+ فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ ٣ ٩٦٦+
الموقع على الإنترنت: www.saffar.org
البريد الإلكتروني: office@ saffar.org